﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤﴾

[النساء: 144]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَمَّ الْمُنَافِقِينَ في الآية السابقة بِأَنَّهُمْ مَرَّةً إِلَى الْكَفَرَةِ، وَمَرَّةً إِلَى الْمُؤمنين مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَقِرُّوا مَعَ أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ نَهَى الْمُؤمنين في هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يَفْعَلُوا مِثْلَ فِعْلِهِمْ فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ"[1]، أي: لا تتخلَّقوا بأخلاق المنافقين؛ فلا تتولوا الكفار من دون أهل ملتكم ودينكم فتكونوا كمن أوجبت له النَّار من المنافقين"[2].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَتَّخِذُواْ﴾: (أخذ) أصل يدلّ على حَوزِ الشّيء وجبيه وجمعه، خلاف العطاء، وهو التّناول. والاتخاذ، افتعال منه، ويعبر عن الأسير بالأخيذ والمأخوذ[3].

2) ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾: السلطان، (سلط) أصل يدلّ على القوة والقهر، والسّلطان: الحجّة، وسمّيت الحجة سلطانًا؛ وذلك لما يلحق من الهجوم على القلب، لكن أكثر تسلطه على أهل العلم والحكمة من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ [غافر: 35]، وقال تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾[4]، والمقصود: الحجة البينة، والمعنى: أَتُريدونَ أَن تَجْعَلُواْ للّه عَلَيْكُمْ في عقابكم حجّة بموالاة الكفّار، أي: أنّكم إذا واليتموهم صارت الحجّة عليكم في العقاب"[5].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/250.
(2) الخازن، لباب التأويل: 1/440.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أخذ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سلط).
(5) الواحدي، البسيط: 7/164 - 165.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

"يقول لهم جلّ ثناؤه: يا أيّها الذين آمنوا بالله ورسوله، لا توالوا الكفَّار فتؤازروهم من دون أهل ملَّتكم ودينكم من المؤمنين، فتكونوا كمن أوجبت له النّار من المنافقين. ثمّ قال جلّ ثناؤه: متوعدًا من اتخذ منهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين، إنْ هو لم يرتدع عن موالاته، وينزجر عن مُخَالَّته أن يلحقه بأهل ولايتهم من المنافقين الذين أعدَّ الله لهم عذابًا أليمًا، ثم قال سبحانه محذرًا ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ أيّها المتّخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴿أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾، حجّة، باتّخاذكم الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فتستوجبوا منه ما استوجبه أهلُ النفاق الذين وصف لكم صفتهم، وأخبركم بمحلّهم عنده"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرض من الاستئناف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾:

لمّا انتهى بيان حال المنافقين استأنف بخطاب المؤمنين، فالجملة مستأنفة؛ "لِأَنَّهَا تَوْجِيهُ خِطَابٍ بَعْدَ الِانْتِهَاءِ مِنَ الْإِخْبَارِ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِطَرِيقِ الْغَيْبَةِ"[2]، للتّحذير من موالاة الكافرين والمنافقين، ومن الوقوع في النّفاق.

استئناف للتّحذير من موالاة الكافرين

دلالة افتتاح الجملة بالنّداء:

نبّه المؤمنين على مضمون الجملة؛ لأنَّها أندى وأنفذ في تنفيذ المراد، وتشير إلى أهميّة الأمر المنادى به؛ فهو مهم وخطير، فعليكم أن تجمعوا قلوبكم وعقولكم لتلقيه وتنفيذه مهما كلفكم من المصاعب.

افتتح الجملة بالنّداء لزيادة التّنبيه على مضمون الخطاب

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/336.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/242.

بلاغةُ التّعبير بالنّداءِ بصفة الإيمان:

قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ جاء المُنادى بهذا بصفة الإيمان، فلا شيء أعلى من الإيمان، وهذا الأسلوب تكرَّر في القرآن كثيرًا، وذلك في الأوامر والنواهي والوعد والوعيد إلى غير ذلك، ومنه ما هو معنا في هذه الآية من النَّهي عن أن يتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ لذلك ناداهم ربّنا بهذا النّداء بكلّ ما فيه من عناصر التّوكيد؛ لتحمّل الأعباء التي يكلّفون بها، ومنها عدم اتّخاذ الكفار أولياء.

ناداهم بصفة الإيمان، لما في التّكليف من مشقّة، تخفيفًا لها بوازع الإيمان

دلالة إيثار استعمال الاسم الموصول:

عبّر عنهم بالاسم الموصول "الذين" لإظهار صفة الإيمان في سياق النّهي عن اتّخاذ الكافرين أولياء، فقد "نادى بالموصول للإشارة إلى أن الإيمان يقتضي ألا يكون ولاء المؤمن لغير المؤمنين"[1].

عبّر عنهم بالموصول إشارة إلى مضمون الصّلة، ليبني النّهي عليه

دلالة النهي في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾:

جاء هذا النّهي من الله لعباده المؤمنين عن " أن يتخلَّقوا بأخلاق المنافقين، الذين يتخذون الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين، فيكونوا مثلهم في ركوب ما نهاهم عنه من موالاة أعدائه"[2]، وبذلك يستحقون العقاب إن هم فعلوا ذلك.

الغرض من التّعقيب بالنّهي عن موالاة الكافرين، بعد ذمّ ذلك لكونه من صفات المنافقين

إيثار التّعبير بالاتخاذ:

اصطفى القرآن الكريم مادة الاتخاذ في قوله ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ في هذا المقام؛ لأنها على وزن افتعال؛ فهي تدل على التكلف للمبالغة في تحصيل المطلوب، وهذا له دلالة مهمة في تكوين إيمان الفرد وإيمان الأمة، ذلك أن المؤمن قد يتعرض لموقف يضطر فيه إلى موالاة

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1921.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/336.

الكافرين؛ فطلب القرآن منك أيها المؤمن أن تبذل كل الوسع في عدم اتخاذهم أولياء مهما يكلفك من مشاقَّ إلا عند حد الاضطرار.

آثـــر الـتّـعـبـير بصيغة الاتّخاذ لما فيها من دلالة عـلـى الـتّـكـلـف والاجتهاد

دلالة التعبير بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بدلًا من لا توالوا الكافرين:

قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾ نهى عن اتّخاذ الكافرين أولياء، ولم ينهَ عن مولاتهم بعبارة مباشرة فلم يقل: (لا توالوا الكافرين)؛ للمبالغة في النّهي، فالمنهيّ عنه هو الاتّخاذ بما فيه من دلالة على التّكلف والاضطرار والتّصنع، فنهى عن ذلك السّلوك وهو غير سلوك الموالاة.

مـبـالـغـة في النّهي، بالنّهي عـن أسـبـاب الموالاة

سر التعبير بالأولياء دون نصراء:

عبر بالأولياء؛ لأن المراد بالولاية هنا النّصرة والانتماء إلى جماعة الكافرين، وبهذا المعنى جاء النّهي عنه، وهو التبعية والنصرة، وذلك أمر منهيٌّ عنه باتفاق، ولوجود فرق بين الوليِّ والنصير؛ فالولاية تكون بإخلاص المودّة، والنصرة تكون بالمعونة والتقوية[1].

نهى عن الولاية دون الـنّـصـرة لأنـهـا تـدلّ على الانتماء والودّ

بلاغة الاستئناف:

قوله جلّ شأنه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ استئناف لبيان الجزاء المعدّ لمن لم ينتهِ عن موالاة الكافرين، "لِأَنَّ النَّهْيَ عَنِ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِمَّا يَبْعَثُ النَّاسَ عَلَى مَعْرِفَةِ جَزَاءِ هَذَا الْفِعْلِ"[2]، وفيه تشهير بسلوك المنافقين، ويحمل معنى التّهديد لهم بتسليط مقت الله وعقابه.

الاستئناف لبيان جـــزاء الـنّـهـي عـن المـــوالاة، وَالـتَّـشـهـير بالمنافقين

دلالة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾:

هذا الاستفهام يتضمن إنكارًا للوقوع أي لَا يقع منهم، ولا يصحّ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 214.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/243.

أن يقع، ويتضمّن التّحذير والإنذار[1]، والمعنى: "إنّكم إن فعلتم ذلك فقد جعلتم لله حجّة في عقابكم، وتسليط ذنوبكم عليكم وتخلّيه عن نصركم؛ فإنّ نصر الله لَا يكون إلّا لمن يطلب النّصرة من الله وحده، ولن ينصر الله من يستنصر بغير الله كما قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد ﷺ: 7]"[2].

الاستفهام للإنكار والتّوبيخ والتّحذير والإنذار

السّرّ في توجيه الإنكار إلى الإرادة دون الفعل:

قوله جلّ شأنه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ تسلّط الإنكار على الإرادة "دون متعلَّقها بأن يقال: (أتجعلون) للمبالغة في إنكارِه وتهويلِ أمرِه ببيان أنَّه مما لا يصدُر عن العاقل إرادتُه فضلًا عن صدور نفسِه كما في قوله ﷻ: ﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ﴾"[3]، فالتّعبير بالإرادة يدلّ على أنّ هذا السلوك منهم في موالاة الكافرين ليس من باب الهمّ ولا من باب الخواطر، إنما هو عزم منهم وصل إلى درجة الوقوع، وفيه تهديد وردع لهم عن تلك الموالاةِ.

توجيهُ الإنكار إلى الإرادة، مبالغةٌ في إنكار ولاية الكافرين، وتهديدٌ لهم

سرُّ ذكرِ السّلطان في سياق النّهي عن الموالاة:

في قوله جلّ شأنه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ ذكر السّلطان في سياق التّهديد والرّدع عن موالاتهم؛ إشارة إلى أنّ استحقاقهم العذاب بسبب الموالاة أمر حتميٌّ لا شكّ فيه، "وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يَأْخُذُكُمْ إِنْ وَالَيْتُمُ الْكُفَّارَ بِانْتِقَامٍ مِنْهُ، وَلَهُ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ الْحُجَّةُ الْوَاضِحَةُ؛ إِذْ قَدْ بَيَّنَ لَكُمْ أَحْوَالَهُمْ وَنَهَاكُمْ عَنْ مُوَالَاتِهِمْ"[4].

ذكر السّلطان في سياق التّهديد، للدّلالة على أنّ استحقاق العذاب حتميٌّ إذا وقعت الموالاة

إيثار التّعبير بالسلطان دون الحجّة في قوله تعالى: ﴿سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾:

في قوله جلّ شأنه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾

(1) القنّوجي، فتح البيان: 3/277.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1921.
(3) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/246.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/112.

آثر التّعبير بالسّلطان دون الحجّة؛ لكونه أبلغ في الدّلالة على قوّة الحجّة، فهو يحمل معنى زائدًا عن الحجّة؛ لأنّه مأخوذ من السّلطة بمعنى القوّة، ومنه السّليط لقوّة اشتماله، والسّلاطة لحدّة اللّسان[1]. فآثر القرآن هنا السّلطان دون الحجة؛ للمبالغة في التّهديد.

آثر التّعبير بالسّلطان لكونه أبلغ في الاحتجاج، مبالغة في التّهديد

دلالة اختيار التذكير على التّأنيث في: ﴿سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾:

يجوز في لفظ (السلطان) التّذكير والتّأنيث، فمن ذكّر ذهب به إلى البرهان والاحتجاج، ومن أنّث ذهب به إلى الحجّة، واختير التّذكير في الآية "لِأَنَّهُ وَقَعَ الْوَصْفُ فَاصِلَةً، فَهَذَا هُوَ الْمُرَجِّحُ لِلتَّذْكِيرِ عَلَى التَّأْنِيثِ"[2]، والتّذكير هو الأشهر وهي لغة القرآن[3].

يجوز فيه التّذكير والتّأنيث، وذُكّر للنّسق الصّوتي، وحفاظًا على الفاصلة

دلالة التعبير بالمصدر المؤول ﴿أَن تَجْعَلُواْ﴾:

عبّر بالمصدر المؤوّل ﴿أَن تَجْعَلُواْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ والمصدر المؤوّل يراعى فيه مع الحدث الإشارةُ إلى الزمن، بعد فعل الإرادة، للدّلالة على استمرار حدوث الحجّة عليهم بسبب الموالاة، وكأنّهم تجدّدت موالاتهم للكافرين؛ فالعقوبة تأتي على هذه الموالاة المتجدّدة، وفي هذا إشارة إلى إخراج حكم الضّرورة التي تلجئ الإنسان إلى الموالاة ظاهرًا مع أعدائه.

عبّر بالمصدر المؤوّل للدّلالة على استمرار حدوث الحجّة عليهم بسبب الموالاة

دلالة الجار والمجرور في قوله ﴿عَلَيْكُمْ﴾:

أفاد الجار والمجرور ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ بما فيه من دلالة على الاستعلاء على قوّة تمكّن السّلطان منهم، إيغالًا في التّهديد، وزيادة في التّرهيب.

عبّر بحرف الجرّ (على) للدّلالة على قوّة الحجّة إيغالًا في التّهديد

(1) الكفويّ، الكليات، ص: 493.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/112.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 3/277، والهرري، حدائق الروح والريحان: 6/441.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحجّة والسّلطان:

السّلطان أخصّ من الحجّة، فهي قوّة الحجّة والتّنفيذ

أصل السّلطان من السّلطة وَالقوّة، ومنه السّليط لقوّة اشتماله، والسّلاطة لحدّة اللّسان[1].

أما الحُجّة فهي البرهان؛ لأنّ الحجّة في كلام العرب ما يقصد به إثبات المخالف، بحيث لا يجد منه تخلّصًا، وعلى هذا فالسّلطان أقوى من الحجّة؛ لأنّه يحمل معنى زائدًا على الحجّة، وهو القوّة في التّنفيذ، ولذلك آثر القرآن هنا السّلطان دون الحجة؛ لبيان قدرته ﷻ في تنفيذ عقابه؛ فلا يمنعه مانع.

وفيه إشارة إلى أن موالاة الكافرين ظاهرة وواضحة؛ لأنها استنصار بغير المؤمنين، يترتب عليه العقاب الأليم؛ فكأنهم قدَّموا حجَّة قويَّة على عقاب الله.

(1) الكفويّ، الكليات، ص: 493.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 8 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-60-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 8 : سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-60-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»